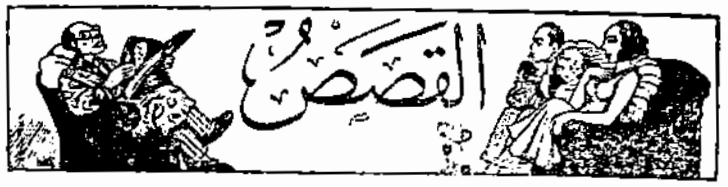

الاعـــــتراف

للكاتب الفرنسى موريس ليفل

وقفت لحظة أمام الباب وأنا ساكن متردّد فى الدخول . ولم أخط العتبة إلا حين نبهتنى المرأة التى جاءت بى بقولها : « هنا يا سيدى تفضل ! »

لم أر شيئاً عند دخولى سوى المصباح الخافت الموضوع فى ركن الغرفة . ثم أخذت أتبين إلى جانب الحائط فراشاً تمدد عليه جسم طويل هزيل حادّ التقاطيع . وكانت رائحة النفط تملأ فضاء الغرفة ، والصمت شامل كصمت القبور

ومالت المرأة على الفراش صائحة : « ها هو ذا السيد الذى أرسلتنى فى طلبه ... »

فنهض الشيخ الممدد على الفراش نصف نهوض وتمتم فى صوت خافت :

— حسن ... حسن ... اتركينا معاً ...

فلما أغلقت المرأة الباب وراءها ، قال الرجل :

— ادن منى ياسيدى ... اجلس هنا على الكرسى الموضوع بجانب الفراش ... إننى أكاد أكون أعمى أصم . معذرة من إقلاق إياك ، فلدىّ شىء خطير أريد أن أفضى إليك به

كان وجه ذلك الرجل بارز العظام شديد الشحوب . وقد ظل برهة يحدّق فىّ بعينيه الواسعتين . ثم واصل حديثه بصوت متهدج :

— ولكن قبل كل شىء ، هل أنت السيد جرينو النائب العمومى ؟

— نعم

فتنفس الصعداء ثم قال :

« إذن يمكننى الآن أن أدلى باعترافى . لقد أمضيت خطابى لك باسم بريبه ، وليس هذا اسمى الحقيقى . ومن الجائز أنك كنت تتذكر معرفتى لولا ما غير الموت من معالم وجهى ... ولكن دعنا من هذا ...

منذ سنوات كثيرة ، كنت وكيل نيابة . كنت واحداً من الرجال الذين يقول الناس عنهم : إن أمامه مستقبل باهر . وكنت عاقداً العزم على تحقيق هذا الرجاء . ما كان ينقصنى سوى الفرصة لإظهار مقدرتى ؛ وقد هيأت لى تلك الفرصة قضية فى محكمة الجنايات . حدثت تلك الجناية فى إحدى ضواحى باريس ، وقد أثارت فى حينها اهتماماً شديداً بين الناس وخاصة فى البيئات القانونية . كانت الشبهات قوية فى المتهم ، ولكن ينقصها الإثبات القاطع . ولقد دافع المتهم عن نفسه دفاعاً قوياً حتى أحسست وأنا فى كرسى النيابة بشعور الشك بل بالعطف يستولى على المحكمة . وأنت تعلم ما لهذا الشعور من تأثير !

ولكنى كذبت بالبراهين المنطقية القاطعة كل ما أنكره المتهم ، وأزحت الستار أمام القضاء عن سلسلة من الحقائق لا مجال للشك فيها . ولأستطيع أن أقوى أدلة اتهامى ، كشفت عن نفسية الرجل وعن ماضى حياته مظهراً كل ما فى خلقه من ضعف وما فى أعماله من دناءة . وختمت مرافعتى القوية بطلب القصاص من المجرم ! وقام الدفاع بعد ذلك بكل ما فى مكنته لتفنيد أدلتى ، ولكنه حاول عبثاً ... وحكم على الرجل بالإعدام

لم يكن للعطف على السجين حينذاك مجال للوصول إلى نفسى . فلقد كنت مندفعاً فى إثبات مقدرتى وفصاحتى ، وكان الحكم عليه انتصاراً باهراً لى

ورأيت الرجل ثانية فى صباح يوم التنفيذ . ذهبت لأراه وهم يسوقونه إلى المقصلة . فلما رأيت وجهه الناضح اعترانى فجأة شىء من الاضطراب والضيق ... إن تفصيلات تلك الساعة المشؤومة لا تزال ماثلة فى مخيّلتى ! ... لم يبد أى مقاومة وهم يوثقون يديه وقدميه . لم أجسر فى تلك اللحظة على النظر إليه ، لأنى شعرت بأن عينيه مصوبتان نحوى فى هدوء غير معهود .

ولقد صاح حين خروجه من باب السجن ومواجهته المفصلة : إنى برىء ! وخيّم السكون على الحاضرين كأن على رؤوسهم الطير . ووجه الرجل الكلام إلى قائلاً : أنظر إلى وأنا أموت، فإن ذلك يستحق بضع دقائق من وقتك . ثم عانق القسيس ومحاميه ... وكانت برهة من أفظع ما مر فى حياتى

فى خلال الأيام التى مرت على ذلك الحادث ، كنت مبلبل الخاطر مضطرب الفكر . كان موت ذلك الرجل هو الشىء الوحيد الذى يستولى على ذهنى فلا يدع مكاناً لسواه . وقد كان زملائى يطمئنوننى بقولهم : إن ذلك يحدث دائماً فى أول مرة

وكنت أصدقهم . إلا أنى أدركت على تراخى الزمن أن هناك سبباً لهذا الاضطراب وهو : الشك ! ومنذ اللحظة التى فطنت فيها إلى ذلك لم يهدأ لى بال . كنت لا ألبث أن أسائل نفسى : ترى هل كان الرجل بريئاً ؟

جاهدت بكل ما فى استطاعتى أن أبعد عن خاطرى تلك الفكرة، محاولاً أن أقنع نفسى أنه مجرم؛ ومحال ألا يكون كذلك، ولكنى كنت أعود فأسائل نفسى : أى دليل حقيقى على إجرامه ؟ وتتمثل فى مخيلتى لحظات الرجل الأخيرة وهو واقف على المقصلة فى هدوء ، ويطن فى أذنى صوته وهو يقول : إنى برىء !

قال لى يوماً أحد الزملاء :

ما كان أبدع دفاع هذا الرجل عن نفسه ! لقد كان من المدهش أنه لم يُبرّأ ... أقسم لك أنى لو لم أسمع مرافعتك لاعتقدت أنه برىء !

إذن كان سحر كلامى وقوة رغبتى فى النجاح ، هما اللذين تغلبا على تردد النظارة ، وربما كان لهما أكبر الأثر فى تكوين رأى المحكمين . أنا وحدى كنت السبب فى قتل هذا الرجل . فإذا كان بريئاً ، فأنا وحدى المجرم المسئول عن موت هذا البرىء ...

إن الإنسان لا يتهم نفسه بشىء دون أن يحاول الدفاع عنها وقبل أن يقوم بكل ما يمكن ليريح ضميره . ولقد كان هذا شأنى بالنسبة لهذه القضية : فلكى أنجو بنفسى من هذا الشك المؤلم ، راجعت أوراق القضية من جديد ... ولما أعدت قراءة مذكراتى ومستنداتى ، وجدت كل ما بها منطقياً معقولاً ... إلا أنها مذكراتى أنا ومستنداتى أنا ، وهى عمل عقلى الذى حكم على المجرم أولاً ، ثم راح يبحث عن الأدلة ، عمل إرادتى ، وقد استعبدتها الرغبة فى إثبات الجريمة على المتهم ... فدرست وجهة نظر الدفاع من جميع وجوهها ... أعدت قراءة إجابات المتهم وشهادات النفى الخ ... وقررت أن أتأكد من بضع نقط فيها شىء من الغموض، ففحصت المكان الذى وقعت فيه الجريمة بدقة ، وسألت شهوداً كان قد أهمل استجوابهم . فلما فرغت من دراسة هذه التفاصيل انتهيت إلى نتيجة حاسمة : وهى أن الرجل كان بريئاً !

وكأن الظروف أرادت أن تشغل ضميرى ، فصدر الأمر وقتئذ بترقيتى ! ... ترقية هى فى الواقع ثمرة لجريمتى الشنيعة .

كانت الشهامة تقضى بأن أعترف بخطئى على الملأ حتى يكون فى ذلك عبرة وعظة لغيرى . إلا أنى كنت أجبن من أن أفعل ذلك . كنت أخشى غضب الناس واحتقار الزملاء ، فاكتفيت بتقديم استقالتى دون أن أبين بها الأسباب ، ثم سافرت بعيداً عن باريس .

ولكن وا أسفاه ! ... إن البعد لا يجلب النسيان

ولقد صار كل همى فى الحياة بعدئذ أن أكفر عن خطيئتى التى لا تقبل إصلاحاً . كان الرجل شريداً لا أهل له ولا أصدقاء يمكننى أن أعوضهم عن فقده بالمال . فقررت أن أخصص كل ما أملك من ثروة لمساعدة البؤساء والمنكوبين من أمثاله ، عازفاً عن مسرات الحياة . وهكذا عشت وحيداً منسياً حتى هرمت قبل الأوان

ولقد أنفقت نفقاتى الخاصة إلى أدنى حد ممكن ... ففى هذا الجحر عشت شهوراً وفيه أدركنى المرض الذى أموت به الآن... والآن يا سيدى قد وصلنا إلى ما أريده منك ... »

وازداد خفوت صوته حتى صرت مضطراً أن أراقب شفتيه المختلجتين لأستعين برؤية حركتهما على تفهم كلماته

« لا أريد أن تموت هذه القصة بموتى . أريد منك أن تعلنها على الناس درساً لأولئك الذين من واجبهم أن يقتصوا من الناس

ولكن بالحق ، لا أن يجلبوا لعقاب للناس على أى حال . أريد أن تكون هذه القصة ماثلة أمام عيون رجال النيابة العمومية وهم يؤدون واجبهم فى طلب رأس المجرم »

فأكدت له أنى سأفعل ما يطلبه

وازدادت رعشة الرجل وهو يواصل حديثه قائلاً :

« ولكن ذلك ليس كل شىء ... لا يزال لدىّ بعض المال ... لم يتسع الوقت لتوزيعه ... إنه هناك فى درج هذه الخزانة . أريد منك أن توزّعه بعد موتى . . . لا باسمى ، بل باسم ذلك الرجل الذى كنت سبباً فى إعدامه منذ ثلاثين عاماً ... وزّعه على الفقراء باسم رانای »

فملقت مردداً :

— رانای ؟!... لقد كنت أنا المحامى عنه

فهز رأسه متمتماً :

— أعرف ذلك. وهذا هو السبب فى طلبى إياك. لقد كنت مديناً لك أنت بهذا الاعتراف. أنا ديرو ، وكيل النيابة

ثم غمغم ببضع كلمات أخرى لم أتبين منها سوى كلمة رانای

* * *

هل خنت سر المهنة ؟ هل خرقت القواعد التى تحتمها سناعتى ؟ إن المنظر المؤلم لهذا الشخص الذى يموت على تلك الحالة التعسة ، قد استدرج الحقيقة إلى لسانى رغماً عنى ، فصحت قائلاً :

— مسيو ديرو ! مسيو ديرو ! لقد كان رانای مجرماً ! . . . لقد اعترف لى وهو فى طريقه إلى المقصلة . أخبرنى بالحقيقة حين كان يودّعنى . . .

ولكن مسيو ديرو كان قد سقط على الوسادة ميتاً

وما زلت حتى الآن ، كلما مرّت هذه الحادثة بفكرى أحاول إقناع نفسى بأنه قد سمعنى .

صلاح الدين كامل